الصباح الإسلامية
09
إعداد : ياسر السيد
العدد 2355 - السنة الثامنة
الإثنين 24 ربيع الأول 1437 - الموافق 4 يناير 2016
Monday 4 January 2016 - No.2355 - 8th Year

### الأهداف الأخلاقية متأصلة القرآن الكريم

# المقاصد التربوية .. في سورة يوسف

إن الحديث عن الحوار في القرآن الكريم بصفة عامة، وقصة يوسف عليه السلام بصفة خاصة، يستلزم الحديث عن البعد المقاصدي، إذ يعتبر العنصر الأساسي في نجاح العملية الحوارية وتحقيق الثمرة المرجوة، وإلا سيكون الحوار عقيما بعيدا عن مرجعيتنا التي تقتضي التنظيم ورسم الهدف في مختلف القضايا قبل الإقبال عليها، وهي حقيقة يشترك فيها جميع المفكرين المسلمين، كما أن مواقع الحوار وقضاياه يجب ألا ينظر إليها بشكل مجتزأ، بل يجب أن تتناول في إطاره وسياقه العام؛ لارتباطه بالغرض الديني وأهداف القرآن العليا وبتصور الإسلام الأصيل، ويمكن تقسيم المقاصد المرجوة من قصة يوسف عليه السلام إلى ما يلي:

، المقاصد التربوية الأخلاقية

مما لاشك فيه أن هدف «التربية الأخلاقية» متأصل في كتاب الله تعالى، ويمكن أن نبرز بعض جوانبه من خلال بعض النماذج الحوارية التي سيقت في القصة كصورة للأخلاق المتجردة الخالصة الموصولة، كما تتجلى في سلوك عبدين صالحين من عباد الله المختارين: يوسف ويعقوب عليهما السلام.

خلق الصبر

وقد ضرب يوسف، عليه السلام، للناس المثل الأعلى في كثير من أنواع الصبر:

– صبر على إيذاء إخوته، وتجريدهم إياه من ثوبه وإلقائه في الجب بقصد إهلاكه.

– صبر على شهوة الفرج، وقد هيئت له في جيش من المغريات يحف به من كل ناحية.

– مسته الضراء والقي في السجن فحالف الصبر بهذه المزية، كما هو معلوم، يورث الزيادة في الرزق والخير كله.

معاني الإيمان

فسيدنا يوسف على مدار القصة، نجده يقف موقفا إيمانيا موصولا بربه يحسه سبحانه قريبا منه مستجيبا له: «ففي موقف الفتنة والإغراء والغواية يهتف: ﴿قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ (يوسف:23)، وفي الموقف الآخر، وهو يخشى على نفسه الضعف والميل، يهتف كذلك: ﴿قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ﴾ (يوسف:33)، وفي موقف تعريف نفسه لإخوته يبين فضل الله عليه ويشكر نعمته ويذكرها: ﴿قَالُوا أَإِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَٰذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ (يوسف: 90).

التحلي بفضيلة الشكر

والشكر: هو معرفة النعمة الحاصلة من المنعم، والفرح بها، والقيام بمقصود المنعم والعمل بما يحبه. وهذا الخلق عزيز في الناس، فيوسف، عليه السلام، يتحدث بنعم الله تعالى عليه وعلى آله وهو من الشاكرين، فإنه لما جاء أبواه رفعهما على العرش وخرا له سجدا (7) فقال: ﴿قَالَ يَا أَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُم مِّنَ الْبَدْوِ مِن بَعْدِ أَن نَّزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ (يوسف:100)، وكان ختام قصته: ﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ (يوسف:101).

لقد كان يوسف، عليه السلام، سواء في مواقف الشدة أو الرخاء، متحليا بفضيلة الشكر. والتحلي بهذه المزية، كما هو معلوم، يورث الزيادة في الرزق والخير كله.

معاني الإيمان

فسيدنا يوسف على مدار القصة، نجده يقف موقفا إيمانيا موصولا بربه يحسه سبحانه قريبا منه مستجيبا له: «ففي موقف الفتنة والإغراء والغواية يهتف: ﴿قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ (يوسف:23)، وفي الموقف الآخر، وهو يخشى على نفسه الضعف والميل، يهتف كذلك: ﴿قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ﴾ (يوسف:33)، وفي موقف تعريف نفسه لإخوته يبين فضل الله عليه ويشكر نعمته ويذكرها: ﴿قَالُوا أَإِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَٰذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ (يوسف: 90).

التحلي بفضيلة الشكر

والشكر: هو معرفة النعمة الحاصلة من المنعم، والفرح بها، والقيام بمقصود المنعم والعمل بما يحبه. وهذا الخلق عزيز في الناس، فيوسف، عليه السلام، يتحدث بنعم الله تعالى عليه وعلى آله وهو من الشاكرين، فإنه لما جاء أبواه رفعهما على العرش وخرا له سجدا (7) فقال: ﴿قَالَ يَا أَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُم مِّنَ الْبَدْوِ مِن بَعْدِ أَن نَّزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ (يوسف:100)، وكان ختام قصته: ﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ (يوسف:101).

لقد كان يوسف، عليه السلام، سواء في مواقف الشدة أو الرخاء، متحليا بفضيلة الشكر. والتحلي بهذه المزية، كما هو معلوم، يورث الزيادة في الرزق والخير كله.

معاني الإيمان

فسيدنا يوسف على مدار القصة، نجده يقف موقفا إيمانيا موصولا بربه يحسه سبحانه قريبا منه مستجيبا له: «ففي موقف الفتنة والإغراء والغواية يهتف: ﴿قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ (يوسف:23)، وفي الموقف الآخر، وهو يخشى على نفسه الضعف والميل، يهتف كذلك: ﴿قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ﴾ (يوسف:33)، وفي موقف تعريف نفسه لإخوته يبين فضل الله عليه ويشكر نعمته ويذكرها: ﴿قَالُوا أَإِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَٰذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ (يوسف: 90).

فكل هذه المقاطع الجدلية تحمل إيحاءات في التربية الإيمانية، وربط كل قضايا الإنسان بخالقه واستحضاره في كل المواقف.

وأما يعقوب، عليه السلام، ففي قلبه تتجلى حقيقة ربه باهرة عميقة لطيفة مأنوسة في كل موقف وفي كل مناسبة، وكلما اشتد البلاء رشفت تلك الحقيقة في قلبه ورفت بمقدار ما تعمقت وبرزت. فمنذ البدء كان يوسف يقص عليه رؤياه في الوقت الذي كان فيه يذكر ربه ويشكر نعمته: ﴿وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَىٰ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ (يوسف:6).

وفي مواجهة الصدمة الأولى يتجه سيدنا يعقوب إلى ربه مستعينا به: ﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ (يوسف:18)

وفي مواجهة الصدمة الثانية في كبره وهرمه وضعفه وحزنه، لم يتسرب اليأس من رحمة ربه لحظة واحدة إلى قلبه: ﴿إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾ (يوسف:87).

ثم يبلغ تجلي الحقيقة في قلب يعقوب درجة البهاء والصفاء، وبنود يؤنيونه على حزنه على يوسف وبكائه عليه حتى تبيض عيناه من الحزن، فيواجههم بأنه يجد حقيقة ربه في قلبه كما لا يجدونها، ويعلم من شأن ربه ما لا يعلمون، فمن هنا اتجاهه إليه وحده وشكواه له وبثه، ورجاؤه في رحمته وروحه: ﴿وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ (84) قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ (85) قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (86) ﴾ (يوسف:84-86).

إنها الصورة الباهرة لتجلي حقيقة الألوهية في قلب من قلوب الصفوة المختارة، وهي تحمل الإيمان المناسب لفترة الشدة في حياة الجماعة المسلمة في مكة، كما أنها تحمل الإيحاء الدائم بالحقيقة الإيمانية الكبيرة، بكل قلب يعمل في حقل الدعوة والحركة الإسلامية على مدار الزمان أيضا (8).

هذا هو المنهج التربوي الأخلاقي الذي يقوم اعوجاج النفس البشرية ويربيها على قيم وأخلاق جليلة في ارتباطها بالقصد الرباني وتحقيق واجب الخلافة في الأرض.

ومن ثم فالمقاصد الحوارية عامة، والتربوية الأخلاقية خاصة، منبثقة من قاعدة العقيدة والدينونة، وهي القاعدة التي تقوم عليها الرسالات.

المقاصد العقدية

كثيرة هي المجادلات القرآنية التي كان هدفها ومقصدها «الدعوة إلى الله»، وما أحوجنا إلى تمثل المنهج الرباني ببعده المقاصدي الذي رسمه الأنبياء والرسل في حياتنا اليوم في مواجهة الفوضى الدعوية وضبطها طبقا للهدف الرباني، فكثير في زماننا من نصبوا أنفسهم للدعوة وهم ليسوا بأهل لها، فزلوا وأزلوا، وضلوا وأضلوا لما زاغوا وخرجوا عن المنهج الرباني في الدعوة.

ومنذ بداية الدعوة الإسلامية من نوح عليه السلام إلى محمد عليه الصلاة والسلام، واجه الأنبياء والرسل موضوع الشرك بالله مشكلة مطروحة، متمثلة في الأصنام الكثيرة التي يعبدها الناس من دون الله، وسنلتقي في هذا المقصد مع المنهج الإسلامي في الدعوة الذي يمثله سيدنا يوسف، الذي يجادل في فكرة التوحيد والشرك؛ لتستبين المقصد الحواري من هذه الصورة.

﴿وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانِ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ الْآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ (36) قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ (37) وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَا أَن نُّشْرِكَ بِاللَّهِ مِن شَيْءٍ ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ (38) يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ (39) مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (40) يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا وَأَمَّا الْآخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِن رَّأْسِهِ قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ (41) ﴾ (يوسف:36-41).

ففي هذا الحوار يبرز جليا مقصد «الدعوة إلى الله»، وعلى وجه الخصوص التركيز على الجانب العقدي، حيث اعتصم النبي يوسف، عليه السلام، في حواره مع الفتيين بصفات جعلته المثل الكامل لهما وللبشرية كافة، إذ لم يشرع بعرض دعوته إلا بعدما أحسن الاستماع إليهما وهما يعرضان عليه رؤياهما؛ ليكون أكثر تأثيرا فيهما بأخلاقه وأدبه.

وتدرج، عليه السلام، في دعوته والزمهم الحجة؛ بأن بين لهم رجحان التوحيد على اتخاذ الآلهة المتعددة، ثم برهن على أن ما يسمونه آلهة ويعبدونه من دون الله لا يستحق العبودية والألوهية، ثم نص على عبادة الواحد الأحد الفرد الصمد، وذلك من الأسلوب الحكيم في الدعوة إلى الله، حيث قدم الهداية والإشادة والنصيحة والموعظة، ثم شرع في تفسير رؤياهما بعد ذلك (9).

كما قد يعلم أن المقصد من كلام يوسف، عليه السلام، ﴿ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾ (يوسف:40)، هو أنه على الداعية أن يفخر بدينه ويدعو إليه بكل اعتزاز مادام هو الدين الحق «أي ذلك الذي أدعوكم إليه من إخلاص العبادة لله، هو الدين القويم الذي لا اعوجاج فيه» (10)، وكذلك على الداعية المسلم أن يغتنم كل فرصة قد تسنح له لتبليغ الرسالة والدعوة إلى الله بمنهج حكيم وأسلوب لين مبتغين من مرجعية دينية.

والمقصد كل المقصد من قضية الدعوة في حوار سيدنا يوسف، عليه السلام، هو أن الحوار حينما يقام على أسس وضوابط يثمر فوائد عديدة، عكس الحوارات التي تقام للمراء والعناد، وقد قيل: «إذا أراد الله بقوم سوءا سلط عليهم كثرة الكلام ومنعهم العمل»، كما أن قضية الرسالة يجب أن تشغل تفكير كل فرد مسلم، ويجعلها همه في كل زمان ومكان، وأن يستفيد من كل فرصة تعرض له ويستغلها في أداء رسالته، ولا يبقى لقضاياه الشخصية إلا الشيء القليل، وتلكم هي قضية الأمانة التي حملها الإنسان..

# شروط وأركان التوبة .. النصوح

اعلم أن كل ابن آدم خطاء، وأن العبد إذا كان كلما أخطأ تاب واستغفر، فإنه يكون أحب إلى الله، قال تعالى: إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ ﴿البقرة:222﴾.

وفي الحديث: كل بني آدم خطاء، وخير الخطائين التوابون. رواه الترمذي وابن ماجه وأحمد وغيرهم.

وفي صحيح مسلم عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: والذي نفسي بيده، لو لم تذنبوا لذهب الله بكم، ولجاء بقوم يذنبون فيستغفرون الله فيغفر لهم.

واجتناب الكبائر تكفر به السيئات، قال الله تبارك وتعالى: إِن تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا ﴿النساء:31﴾. وقال: الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ ﴿النجم:32﴾.

قال ابن عباس: ما رأيت شيئا أشبه باللمم مما قال أبو هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: إن الله كتب على ابن آدم حظه من الزنا أدرك ذلك لا محالة، فزنا العينين النظر، وزنا اللسان النطق، والنفس تمنى وتشتهي، والفرج يصدق ذلك أو يكذبه. متفق عليه.

لكن كونها صغيرة متجاوزا عنها مشروط بعدم الإصرار عليها، كما قال تعالى: وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿آل عمران:135﴾.

وفي مسند أحمد: ارْحَمُوا تُرْحَمُوا، وَاغْفِرُوا يُغْفَرْ لَكُمْ، وَيْلٌ لِأَقْمَاعِ الْقَوْلِ، وَيْلٌ لِلْمُصِرِّينَ الَّذِينَ يُصِرُّونَ عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ.

فإنه لا صغيرة مع الإصرار، ولا كبيرة مع الاستغفار، كما قال أهل العلم، ولا ينبغي لأحد أن يتذرع لفعل المعاصي بكونها صغيرة، أو بكونها من غير إصرار، فإن ذلك قد يكون سببا في هلاكه. وقد جاء في الحديث: إياكم ومحقرات الذنوب كقوم نزلوا في بطن واد فجاء ذا بعود وجاء ذا بعود حتى أنضجوا خبزتهم، وإن محقرات الذنوب متى يؤخذ بها صاحبها تهلكه. رواه الإمام أحمد.

وفي الحديث أيضا: إن العبد إذا أخطأ خطيئة نكتت في قلبه نكتة سوداء، فإذا هو نزع واستغفر وتاب سقل قلبه، وإن عاد زيد فيها حتى تعلو قلبه وهو الران الذي ذكر الله: كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ. رواه الترمذي وقال: حسن صحيح.

وقد قال تعالى: كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ كَلَّا إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُو الْجَحِيمِ ﴿المطففين:14، 16﴾. وهذه الصغائر هي التي تكفرها الأعمال الصالحة من فروض ونوافل، كما قال تعالى: وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّاكِرِينَ ﴿هود:114﴾.

وفي الحديث: اتق الله حيثما كنت وأتبع السيئة الحسنة تمحها وخالق الناس بخلق حسن. رواه الترمذي. وقال: حسن صحيح.

ثم إن عدم الإصرار عليها لا يكون بفعلها مع الحرص على عدم المداومة كما ذكرت، بل هو بأن يتوب المذنب إذا فعل الذنب ويستغفر ويقلع عنه مع العزم على عدم العود إليه، أما فعله مع الاكتفاء بالحرص على عدم الإكثار منه، أو المداومة، أو بالاستغفار مع فعله، فهذا في نفسه ذنب آخر أعظم، فإن الأول هو عين الإصرار، والثاني فيه نوع من التلاعب، قال ابن حجر - رحمه الله - في قوله تعالى: وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا - فيه إشارة إلى أن من شرط قبول الاستغفار أن يقلع المستغفر عن الذنب، وإلا فالاستغفار باللسان مع التلبس بالذنب كالتلاعب. اهـ

قال ابن عباس: المستغفر من الذنب وهو مقيم عليه كالمستهزئ بربه.

ولذلك جاء في الحديث الذي في البخاري ومسلم واللفظ له: أذنب عبد ذنبا، فقال اللهم اغفر لي ذنبي، فقال تبارك وتعالى: أذنب عبدي ذنبا فعلم أن له ربا يغفر الذنب ويأخذ بالذنب ثم عاد فأذنب، فقال أي رب اغفر لي ذنبي، فقال تبارك وتعالى: عبدي أذنب ذنبا فعلم أن له ربا يغفر الذنب ويأخذ بالذنب، ثم عاد فأذنب فقال أي رب اغفر لي ذنبي، فقال تبارك وتعالى: أذنب عبدي ذنبا فعلم أن له ربا يغفر الذنب ويأخذ بالذنب، اعمل ما شئت فقد غفرت لك.

قال ابن حجر: وقال القرطبي في المفهم: يدل هذا الحديث على عظيم فائدة الاستغفار وعلى عظيم فضل الله وسعة رحمته وحلمه وكرمه، لكن هذا الاستغفار هو الذي ثبت معناه في القلب مقارنا للسان لينحل به عقد الإصرار ويحصل معه الندم، لا من قال أستغفر الله بلسانه وقلبه مصر على تلك المعصية، فهذا الذي استغفاره يحتاج إلى الاستغفار. اهـ

قال النووي في شرح مسلم: لَوْ تَكَرَّرَ الذَّنْبُ مِائَةَ مَرَّةٍ، أَوْ أَلْفَ مَرَّةٍ، أَوْ أَكْثَرَ، وَتَابَ فِي كُلِّ مَرَّةٍ، قُبِلَتْ تَوْبَتُهُ، وَسَقَطَتْ ذُنُوبُهُ، وَلَوْ تَابَ عَنْ الْجَمِيعِ تَوْبَةً وَاحِدَةً بَعْدَ جَمِيعِهَا صَحَّتْ تَوْبَتُهُ، وقال: قوله: اعمل ما شئت - معناه ما دمت تذنب فتتوب تغفرت لك. اهـ

وعلى ما مر، فإن كنت تعنين - كما هو ظاهر كلامك - أنك تفعلين الذنب المعين مع العزم مسبقا على عدم المداومة عليه بأن تنهي بفعله في أوقات متفرقة، أو بأن لا تكثري منه، فهذا هو عين الإصرار، فلا تكونين بذلك قد اجتنبت أن تصير الصغيرة كبيرة، بل قد وقعت في ذلك، فينبغي عليك التوبة من هذا الذنب ومن هذا الإصرار، بالندم والإقلاع والعزم الصادق على عدم العود إليه، فإن عدت بعد ذلك لضعف نفس فتوبي منه مرة أخرى، مع عدم التعذر بكونه صغيرة، والله تواب غفور، يحب التوابين ويحب المتطهرين، وفقنا الله وإياك لما يحبه ويرضاه وأحسن خواتيم أعمالنا.

# دروس وعبر من غزوة الطائف

كان مالك بن عوف الذي قاد الجموع إلى حنين سار بعد الهزيمة مع ثقيف إلى الطائف، وأغلقوا عليهم أبواب مدينتهم ودخلوا حصنهم المنيع بعد أن جمعوا فيه من المؤن والذخيرة ما يكفيهم لمدة عام، فسار الرسول إليهم ومضى حتى نزل قريبا من الطائف وضرب المسلمون حولهم الحصار وقذفوا حصنهم بالمنجنيق لأول مرة واستمر حصارهم كما ذكر ابن إسحق بضعا وعشرين ليلة قاتلوا فيها قتالا شديد وترامو بالنبل

ولما ضاق الحصار وطالت الحرب أمر رسول الله صلى الله عليه و سلم بقطع الأعناب والنخيل لثقيف. وهي مما يعتمدون عليه في معاشهم ووقع المسلمين فيها يقطعون عليهم يخرجون للدفاع أو طلب الصلح لكنهم سألوا الرسول أن يدعها لله والرحم فقال فإني أدعها لله والرحم

وفي أحد الأيام استشار رسول الله صلى الله عليه و سلم نوفل بن معاوية الديلي وقال : يا نوفل ما ترى في المقام عليهم؟

فقال : يا رسول الله ثعلب في جحر إن أقمت عليه أخذته وإن تركته لم يضرك

ورفع النبي صلى الله عليه و سلم عنهم الحصار وقرر العودة دون أن يفتح الطائف فلما ارتحلوا قال لهم الرسول قولوا: آيبون تائبون عابدون لربنا حامدون وفي أثناء الرجوع طلب بعض الصحابة من الرسول أن يدعو على ثقيف فقال: اللهم اهد ثقيفا وأت بهم مسلمين

وسار الرسول بجيشه حتى نزل الجعرانة (حيث كان قد ترك الغنائم والسبي الذي حازه من هوازن وحلفائها) وتأتى بها بضعة عشر يوما ليرجع إليه هوازن ومن حالفهم تائبين فيرد عليهم غنائمهم فلم يجئه أحد فشرع بقسمها ليسكت هؤلاء المتطلعين الذين ازدحموا على رسول الله يقول: يا رسول الله اقسم علينا فيأنا، حتى الجئوه إلى شجرة فاختطف منه رداءه فقال : أيها الناس ردوا علي ردائي فوالله لو كان لكم بعدد شجر تهامة نعما لقسمته عليكم ثم ما لقيتموني بخيلا و لا جبانا ولا كذابا ثم قال إلى جنب بعير فأخذ من سنامه وبره فجعلها بين إصبعيه ثم رفعها فقال : أيها الناس والله مالي من فيئكم ولا هذه الوبرة إلا الخمس والخمس مردود عليكم

وأعطى رسول الله صلى الله عليه و سلم المؤلفة قلوبهم وكانوا من أشراف قريش وبعض القبائل الأخرى يتألفهم ويتألف بهم قومهم فأعطى أبا سفيان ابن حرب مائة بعير وأعطى ابنة معاوية مائة أخرى وأعطى حكيم بن حزام مائة... إلخ وأعطى عباس بن مرداس بعض الإبل فسخطها وعاتب فيها رسول الله صلى الله عليه و سلم وقال في ذلك شعرا فأعطاه الرسول حتى رضي ولم يعط الرسول من هذه الغنائم للأنصار ولا كبار المهاجرين ووكلهم إلى إسلامهم

موقف الأنصار

ولما أعطى رسول الله صلى الله عليه و سلم من تلك العطايا في قريش وفي قبائل العرب ولم يكن في الأنصار منها شيء وجد هذا الحي من الأنصار في أنفسهم حتى كثرت منهم القالة، حتى قال قائلهم : قد لقي والله رسول الله قومه فذهب سعد بن عباده إلى رسول الله فقال: يا رسول الله إن هذا الحي من الأنصار قد وجدوا عليك في أنفسهم لما صنعت في هذا الفيء الذي أصبت قسمت في قومك وأعطيت عطايا عظيمة في قبائل العرب ولم يك هذا الحي من الأنصار منها شيء

فقال الرسول: فأين أنت من ذلك يا سعد؟

قال: يا رسول الله ما أنا إلا من قومي

قال : فاجمع لي قومك في هذه الحظيرة

فخرج سعد فجمع الأنصار وقال: يا رسول الله لك هذا الحي من الأنصار

فأتاهم رسول الله صلى الله عليه و سلم فحمد الله و أثنى عليه بما هو أهله ثم خطب الأنصار قائلا: يا معشر الأنصار ألم أتكم ضلالا فهداكم الله وعالة فأغناكم الله وأعداء فألف الله بين قلوبكم؟؟

قالوا: بلى الله ورسوله أمن وأفضل